الرأسمالية والتغير الاجتماعي رؤية ماركسية
في رواية "جوع" لمحمد البساطي

د. هاني إسماعيل محمد إسماعيل أبو رطيبة
أستاذ الأدب والنقد الحديث المساعد
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة بني سويف

المستخلص

يعبَّر أدب محمد البساطي الروائيٌّ عن طوائف المسحوقين المهمشين والبسطاء، فأدب البساطي يصف حياة هؤلاء في ظل عمليات التهميش والتجاهل لهم ولمعاناتهم، فتهتم رواياته بهم وتعيد نسخ واقعهم من خلال مجتمع النص الروائيّ، لذلك اختار البحث رواية "جوع" التي تعد من أهم رواياته المعبرة عن حياة المهمَّشين والمسحوقين، لتكون مادته.

فهذه دراسة نقدية تسعى للكشف عن الأيديولوجيا الفكرية التي تتبناها رواية "جوع"، وتبشِّر بها، وفق نظرية المعرفة الماركسيَّة، خاصة أنَّ الرواية قد اتَّخذت الرؤية الماركسيَّة محورًا أساسيًا في بنائها الفكريّ والفنيّ. فتناولت الدارسة عدة مباحث أهمها: السياق التاريخي، الاستهلاك وعلميات تسليع الجسد، وصناعة النخب الرأسمالية، والوريث الرأسمالي.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن دور المبدع المعاصر في مناقشة الواقع الاجتماعي والاقتصادي للوطن، وإسهامه في نقد تلك التغييرات ومعارضتها؛ بهدف الإصلاح والاستمرار في عمليات النهضة الحديثة، فالمبدع صاحب التوجه الأيديولوجي يركز –من خلال إبداعه– على مناقشة بعض سلبيَّات الواقع؛ بهدف إصلاحها، ونشر المعرفة التي تتيح للقارئ التفاعل الإيجابيَّ في محيطه الثقافي والاجتماعي.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليليّ التاريخيّ، للوقوف على البنية الفكريَّة والثقافيَّة للنص الروائيّ، ومدى استجابته للواقع المجتمعي وتاريخه.

وجاءت الخاتمة لتبرز دور المبدع الأيديولوجي في نشر المعرفة، وإشراك المتلقي في خلق تفاعل إيجابي مع النص الروائي، والتغييرات الاجتماعية

الكلمات المفتاحية

الاشتراكية، التسليع، الوريث، المهمش، الاستهلال، صراع الطبقات

المقدمة

يعبَّر أدب محمد البساطي الروائيٌّعن طوائف المسحوقين المهمشين والبسطاء، فيصف حياة هؤلاء في ظل عمليات التهميش والتجاهل لهم ولمعاناتهم، فتهتم رواياته بهم وتعيد نسخ واقعهم من خلال مجتمع النص الروائيّ.

"ويظل الريف منبع المخيلة الفنية الأكثر تدفقًا عند البساطي؛ربما لجذوره الريفية من ناحية، وما هو مخزون فيالذاكرة من ذلك؛ لانشغاله بتواضع الريف أمام العاصمة والمدن الكبرى في الوطن، من حيث الاهتمام الحضاري والاجتماعي والثقافي، وإن كان الريف في أعماله ينفتح على المدينة في خروجه للهامش؛ كي يصاحب مناطق النفوذ الإقليمية أو يأتي إليه الغرباء ليتصل بالسياق العالمي كما في المقهى الزجاجي[1]؛ فحياة الريف بكل تفاصيلها المهمَّشة يبرزها البساطي بهدف الإعلان عن حياة هؤلاء ووضعهم في خارطة الوطن؛كي يعاد النظر إليهم من جديد، بوصفهم مواطنين يحتاجون إلى مزيد من الرعاية والاهتمام، وأن يكونوا في القلب من السياسات الاقتصادية الوطنية مثلهم في ذلك مثل أبناء المدن الكبرى. تتكشَّف المعاناة التي تطال الجميع، وذلك في ظل التغييرات المهمة التي طرأت على المجتمع المصري،وفي ظل التوجُّه الرأسمالي، الذي بدأ تأثيره في الظهور في حياة الجميع.

هذه دراسة نقدية تسعى للكشف عن الأيديولوجيا الفكرية التي تتبناها الرواية، وتُبشِّر بها، وفق نظرية المعرفة الماركسيَّة، خاصة أنَّ الرواية قد اتَّخذت الرؤية الماركسيَّة محورًا أساسيًا في بنائها الفكريّ والفنيّ.

إنَّ الرواية بمنطقها الفكريّ الذي تبنته تعد وثيقة معرفيَّة، قصدت –من خلال السرد الروائيّ– نشر المعرفة الاقتصاديَّة السياسيَّة؛لتبرز حقيقة التحول الأيديولوجي المهم الذي حدثفي مصر في الحقبة الأولى من القرن الحادي والعشرين،الذي خلق نوعًا من الصراع الطبقي لم يكن معهودًا منذ ثورة ١٩٥٢م؛ لذلك سعت الدراسة إلى تحليل النص وفق النظرية الماركسية؛ لأنها الأقرب إلى توجُّه الرواية ومؤلفها الذي يهتم في كتاباته بالمهمَّشين والمسحوقين اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

يمنحنا تحليل الرواية –وفق النظرية الماركسية– قدرة الوقوف على بنية النص الدلالية،ووسبر أغواره من خلال تحليله داخليا، وقراءة السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي

عاصرته الرواية، أو ظهرت بفعله، من خلال مجتمع النص، الذي برزت فيه الصراعات الطبقية، التي هي في جوهرها صراعات اقتصاديَّة سياسيَّة.

لم تتبن الرواية رؤية مناهضة التحول غير المدروس للرأسمالية؛وإنما تبنت مناهضة الرأسمالية بكل صورها، من منطق الرفض التام، وتعاظم الفروق بين النظريتين الاقتصاديتين في التداخلمع فئات المجتمع المختلفة، كما أنَّ الرواية ركَّزت على عقد مقارنات بين الماركسية أو الاشتراكية الناصرية والرأسمالية، من خلال عرضها لحياة أبناء الطبقتين؛كاشفة عوار الطبقية الرأسمالية، وفقدانها لسبل الحياة الإنسانية السليمة، في حين أنها صوَّرت أبناء الطبقية الماركسية في صور السلام النفسي والتصالح الاجتماعي رغم الفقر والعوز، كما أراد الخطاب الروائي أن يوضح –عبر انتمائه للنظرية الماركسية– أنها الأقرب إلى الفطرة الإنسانية، عبر التأكيد على أخلاقيات القرية، وما فيها من تكافل اجتماعي، وتعاون وتشارك؛ لتؤكِّد أنَّفكرة الابتعاد عن الفطرة الإنسانيَّة، والتحول إلى الاستهلاك والتسليع تعرِّض المجتمع للخطر.

إن رواية "جوع" بمنطقها ورؤيتها التي تتبناها تعد رواية اجتماعية مهمة، تناولت حياة المهمشين والمسحوقين، وفي دراستها تأريخ وتأصيل للسياق التاريخي والاجتماعي الذي نشأت فيه؛فهي تهدف إلى التبشير بالمستقبل، في ظل التغييرات الكبرى داخليًا وخارجيًا، وآثار تلك التغييرات في بنية المجتمع.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن دور المبدع المعاصر في مناقشة الواقع الاجتماعي والاقتصادي للوطن، وإسهامه في نقد تلك التغييرات ومعارضتها؛ بهدف الإصلاح والاستمرار في عمليات النهضة الحديثة، فالمبدع صاحب التوجه الأيديولوجي يركز –من خلال إبداعه– على مناقشة بعض سلبيَّات الواقع؛ بهدف إصلاحها، ونشر المعرفة التي تتيح للقارئ التفاعل الإيجابيَّ في محيطه الثقافي والاجتماعي.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليليّ التاريخيّ، للوقوف على البنية الفكريَّة والثقافيَّة للنص الروائيّ، ومدى استجابته للواقع المجتمعي وتاريخه، لذا قُسِّمت الدراسة إلى عدة مباحث، كالتالي:

- السياق التاريخي للنص الروائي.

- الاستهلال والمفارقة.
- المكان والبعد الرأسمالي.
- الاغتراب.
- صراع الطبقات الاجتماعية.
- الاستهلاك وصناعة الذات المتعالية.
- الرأسمالية وتسليع الجسد.
- صناعة النخب الرأسمالية.
- الوريث الرأسمالي.
- الجماعة .. التعاون الماركسي والواقع الاجتماعي.

وجاءت الخاتمة لتبرز دور المبدع الأيديولوجي في نشر المعرفة، وإشراك المتلقي في خلق تفاعل إيجابي مع النص الروائي، والتغييرات الاجتماعية.

السياق التاريخي للنص الروائي

قبل الخوض في تحليل النص الروائي وتأويله وفق النظرة الماركسية، لابد أن نلقي نظرة حول السياق التاريخي الذي نشأ فيه النص الروائيّ، أو بعبارة أخرى –وفق النقد الماركسي– السياق التاريخي المنتج لهذا النص الروائي، فلكلِّ نص أدبي سياق تاريخي أثَّر فيه، وأسهم في إنتاجه، سواء كان هذا السياق سياقًا عامًا، يخص المجتمع بأكمله:نظمه، وسياساته الاقتصاديةوالاجتماعية، أو سياقه التاريخي الخاص بمؤلفه.

"تُسمَّى الظروف الاقتصادية في اصطلاحات النظرية الماركسية بالظروف "المادية"، ويُسمَّى الوضع السياسي والاجتماعي والأيديولوجي المنبثق عن هذه الظروف بالموقف التاريخي؛ لذلك يصر الناقد –الأديب – الماركسي على أنه لا يمكن فهم الأحداث البشرية سياسية كانت أوشخصية،ولاالنتاج البشري بدءًا من الغواصات النووية إلى البرامج التلفزيونية دون فهمنا الظروف التاريخية والمادية المحددة التي ظهرت هذه البرامج في خضمها إذا ما أردنا صياغة هذه الفكرة بصور أوضح، ويمكن القول:إن الناقد الماركسي يؤمن أن جميع المنتجات والأحداث الإنسانية كانت نتاجَ مسببات ماديةٍ وتاريخيةٍ محددة؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى صورة دقيقة عن الشؤون الإنسانية من خلال بحثنا في أمور تجريدية؛ بل من

خلال فهمنا للظروف المادية المحسوسة في العالم؛ لهذا السبب يُركِّز التحليل الماركسي للأحداث والمنتجات الإنسانية على العلاقات بين الطبقات الاقتصادية –الاجتماعية داخل المجتمع الواحد من ناحية، وبينها وبين طبقات المجتمعات الأخرى من ناحية أخرى، كما يركز التحليل الماركسي على فهم الأنشطة الإنسانيَّة عن طريق فهم توزيع القوَّة الاقتصادية وفعاليتها؛ لذلك فإنَّ النظرية الماركسية تُصر على أنه لا يمكن تقييم مدى أهمية الأفكار النظرية إلاَّ من خلال رؤية مدى إمكانية تطبيق هذه الأفكار عمليًّا في هذا العالم.(٢)

من هذه الرؤية الماركسية جاءت رواية "جوع" لمحمد البساطي؛ لتناقش قضايا المجتمع المصري السياسية والاجتماعية والاقتصادية، متأثرة أو مُنتَجة بفعل التغييرات السواقتصادية التي تبنتها الإدارة السياسية لمصر في أواخر التسعينيَّات وأوائل الألفية الجديدة، ومحاولات التحول الاقتصادي من النظام الاقتصادي الاشتراكي – القطاع العام – إلى النظام الاقتصادي الرأسمالي – القطاع الخاص–، ذلك التحول الذي عدَّه الفكر الماركسي أو مثقفو الماركسية انقلابًا اقتصاديًا وفكريًا على الاشتراكية الناصرية أو ثورة ١٩٥٢م، تلك الثورة التي وضعت الإنسان المصري في القلب من الاقتصاد المصري، وأعادت النظر –من وجهة النظر الماركسية– في توزيع الثروات والأراضي على المصريين عبر الاستصلاح الزراعي والملكيَّة العامَّة، التي ترسَّخت نفسيا ووجدانيًا واجتماعيًا واقتصاديًا خلال الخمسين سنة التي سبقت تأليف الرواية.

يعكس الفكر الماركسي للرواية تلك المخاوف العميقة من ذلك التحول الاقتصادي الذي سيؤثِّر في بنية المجتمع المصري، ويؤسس لتوغل الرأسمالية ومن ثَمَّ قتل فكرة الملكيَّة العامة والتكافل الاجتماعي، الذي تنادي به الماركسية، وقد كانت تلك الفكرة مطبقة في مصر طيلة الحقب السابقةعلى ذلك التحول الذي بدأ بفكرة الخصخصة، وبيع القطاع العام، دون دراسة وتخطيط يحمي ثروات المجتمع المصري، ويحافظ على التحول المتدرج في أي تغيير اقتصادي تتبناه الدولة. لكنَّ الفكر الماركسي يرفض هذا التحول برمته، وليس أساليبه وطرقه؛ لأنَّ هذا التحول سيزعزع الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمصريين، ويؤسس للطبقية الاقتصادية المستغلة؛ مما يحدث فجوة كبيرة بين فئات المجتمع المصري وطبقاته المختلفة، كما في حالة الأستاذ الجامعي الشيخ رضوان.

إنَّ هذا التحول سيغير التركيبة الدينية وسيعيد إنتاج فكرة وعَّاظ الرأسمالية، أولئك الذين ينادون بالصبر والتحمل، ويحببون الفقر إلى الناس؛ لخدمة الرأسمالية الجديدة.

إنَّ رواية جوع محاولة أدبية ماركسية لإبراز النتائج المترتبة على ذلك التحول الاقتصادي الذي تبنته الدولة، وأرادت تحويله إلى أيديولوجية مجتمعية، تتبناه النخب السياسية، ومن ثم يصبح حقيقة مجتمعية مقبولة؛ لذلك جاء الخطاب الروائيّليبرز تلك المعركة الاجتماعية الاقتصادية، التي ستدور في مصر بين طبقة الملَّاك الرأسماليةوطبقة المحرومين والمشردين،بين البرجوازيين الذين يسيطرون على الموارد الطبيعية والاقتصادية والبشرية والعمال الكادحين، الذين يشكِّلون معظم المجتمع ويعملون بأيديهم لملء خزائن الأغنياء لا جيوبهم، ولسوء الحظ فإن هؤلاء العمال هم آخر من يدرك هذه الحقيقة[٣] التي كان زغلول وأسرتهترسًامهمًا في إثراء طبقة الملاك الجدد " صاحب المقهى" أو محاولة دعمهم معنويًا ووجدانيًا وإنسانيًا " الحاج عبد الرحيم / الحاج هاشم" دون أن يكون له أي حق مادي، يحفظ له كرامته وأسرته. إنَّ الرواية كانت صرخة اجتماعية في وجه تلك التحولات الرأسمالية العشوائية القاسية، التي سادت في أوائل القرن الحادي والعشرين، تلك التحولات التي لم تسع لضمان حقوق المجتمع المصري البسيط، فبدا عشوائيا مضطربًا خاليًا من أي نظام أو ضمانات لحماية طبقات الكادحين والفقراء في مصر. فالرواية تنطلق من الرؤية الماركسية التي ترى أن الأدب نتاج من نواتج البيئة الاقتصادية المادية التي تدفع لتفاعل إيجابيمع البنية الفوقية.

فالأدب والفن –كما تصورهما الماركسية– " جزءٌ من البنية الفوقية للمجتمع ... جزء من أيديولوجيا المجتمع أو عنصر من تلك البنية المعقدة من الإدراك الاجتماعي التي تُبرز الموقف الذي تسيطر فيه طبقة اجتماعية على غيرها، ولذلك فإن فهم الأدب يعني فهم العملية الاجتماعية التي تشمله، وكما يقرر جورجي بليخانوف فإن العقلية الاجتماعية لأي عصر مشروطة بالعلاقات الاجتماعية لهذا العصر وأوضح ما يكون ذلك في تاريخ الأدب والفن، ومعنى ذلك أن الأعمال الأدبية ليست إلهامًا غامضًا، أو أعمالاً قابلة لتفسير بسيط، يعتمد على سيكولوجية مؤلفيها، إنها أشكال للإدراك وطرائق خاصة في رؤية العالم[٤]؛ فهي رؤية اجتماعية اقتصادية قائمة على التأثير والتأثر، والتعاطي الإيجابي بين بني المجتمع

المختلفة؛ لإنتاج ذلك النص، فرواية "جوع" هي خطاب إبداعي يصور وطنًا يمر بظروف اقتصادية مضطربة، فالنص يعد رد فعل إيجابي للكشف عن تلك التغييرات الاقتصادية، التي ألقت بظلالها على البنية الاجتماعية للمجتمع؛ لذلك سعت الرواية إلى أن تختار بعناية المكان الذي تقع فيه غالبية أحداثها، وهو المجتمع الأكثر براءة وبدائية وأقرب للرؤية الماركسية القائمة على التكافل الاجتماعي والتعاون والتشارك؛ لذلك كانتالقرية هي المكان النقي البريء الذي تدور فيه أحداث الرواية، وجاءت القرية مجهولة الاسم؛ ليؤكد الخطاب الماركسي للرواية أن تلك الأحداث تقع في عموم مصر، وأن المجتمع الأكثر استقرارًا وتعاونًا الحافظ للسمات المصرية المهمة، غدا مهددًا بالعوز الاقتصادي والاجتماعي، وانهيار القيم وانحلال الأخلاق الأصيلة، فالرأسمالية –من وجهة نظر الخطاب الروائي– نجحت في غزو المجتمع القروي وتهديده اجتماعيًا وإنسانيًا، في ظل مرحلة التغييرات المضطربة التي عمّت أرجاء الوطن اجتماعيًا واقتصاديًا.

ترصد رواية جوع التحول المجتمعي؛ لتؤكد "أن على الإنسان ألاَّ يفهم الواقع كوجود بيولوجي، بل يفهمه كوجود اجتماعي بشكل رئيس، لأن الإنسان هو مجمل العلاقات الاجتماعية وكمالها"(٥)فالإنسان المصري يعيش مرحلة التحول الاقتصادي العشوائي، وسلوكياته المتأثرة بالبنية المادية الاقتصادية تتفاعل مع الواقع، وكذلك الإدارة السياسة المصريةالتي امتلكت بأيديولوجيتها القدرة على التوجيه للتغيير الاقتصادي والتحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية رغم أن دستور ثورة ١٩٥٢م كان يؤكَّد على الاشتراكية والملكية العامة، والتكافل الاجتماعي الذي يضمن حياة كريمة للمواطن المصري.

الاستهلال والمفارقة:

للعنوان أهمية كبرى في كشف مضمون النص الأدبي؛ فهو يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنص ودلالته العميقة، ويقودنا إلى إنتاج نص أدبي جديد، يرتبط بالنص السردي، ويقيم معه علاقة تواصل إيجابي، ينتج من خلالها نصًّا موازيًا، يتَّفق مع الخطاب الروائي أو يتعارض معه بهدف سبر أغواره العميقة من خلال المفارقة. فالعنوان هو اللبنة الأولى في الموضوع الذي اختاره الروائي محمد البساطي، فهو الذي يلفت انتباه المتلقي ويحفظ نشاطه، ويوجِّهه

فكريًّا؛ لإقامة علاقة تأويليَّة بينه وبين النص تكشف المسار الفكري الذي تتبناه الرواية، وتوجه قارئها له.

يُبشِّر عنوان الرواية "جوع" المتلقي بالمصيرالذي ينتظره من جرَّاء القوانين الاقتصادية الجديدة، التي تتبناها الدولة متخلية عن النزعة الاشتراكية التي كانت سائدة منذ يوليو ١٩٥٢م، تلك النزعة التي فرضت نوعًا من الرضا والتسامح والتكافل الاجتماعي بين أبناء الشعب المصري، لكنَّ العنوان أنتج نصًا متوقعًا يخبر به عن هذه الهجمة الرأسمالية التي ستحدث الجوع؛ لذلك جاء العنوان نكرة؛ ليؤكد عموم الجوع وشموله لكل مصر، لا فرق فيها بين نجع وقرية ومدينة؛ فسطوة الرأسمالية الجشعة أكبر من أن تقاوم، ولمزيد من تعميق الدلالة جاء العنوان المكمِّل للعنوان الأصلي، أو لنقل الاستهلال السردي؛ ليحدث مفارقة عبر التناص مع القرآن الكريم. فالاستهلال بالآية الكريمة "ادْخُلُوهَابِسَلَامٍآمِنِينَ(٤٦)سورة الحجر" يؤكِّد أنَّ السلام والأمان السائدين في مصر، _التي كانت جنة من وجهة نظر النص الروائي_، قد تغيرا بفعل حلول الرأسمالية محل الاشتراكية الناصرية؛ فتغيرت النفوس، وجاعت الأرواح والقلوب والبطون؛ وانتشرت الأنانية والانتهازية، وتحول الجميع إلى رأسماليين، حتى لو لم يتمكنوا فعليًا من أن يكونوا كذلك، لكنَّ أخلاقهم وممارساتهم وسلوكياتهم صارت رأسمالية متسلطة؛ تسعى إلى تحقيق المنافع الخاصة على حساب المجتمع والوطن.

وقد أنتج العنوان والاستهلال السردي المتناص مع القرآن دلالة عميقة أو نصًا موازيًا يُكمِّل ما جاء في الرواية من تصوير للمعاناة الإنسانية التي عاناها بسطاء هذا الوطن من جرَّاء الرأسمالية وممارساتها، فهيأالعنوان والاستهلال المتلقي لتلقي الخطاب الماركسي للرواية، والتفاعل معه عبر التخييل السردي، الذي يدمج المتلقي نفسه مع النص قبيل اقتحامه فكريًا عبر أفق التوقع المساير للنص في عنوانه "جوع" أو المخالف له في التناص القرآني، وفي كلتا الحالتين ينجح النص الموازي في خلق صورة ذهنية متخيلة ومتوقعة عن النص، تساعد في تأويله والاستمرار في قراءته والتخييل الواقعي من خلاله.

المكان والبعد الرأسمالي:

"لم يقدم المؤلف اسمًا للمكان الذي دارت فيه أحداث روايته، باستثناء الوصف التجريدي الذي يؤكد أننا بصدد مكان ريفي، وهو مع ذلك لا يقتصر على ريف معين سواء في الدلتا أو في الصعيد، وإغفال تحديد المكان له دلالته العميقة، فالكاتب لا يريد أن يجعل الفقر يرتبط بمكان معين(٦)؛ بل يريد أن يشرك المتلقي معه في التأويل والتوقع، فالقارئ الصعيدي سيرى أن القرية هي قريته، والفقر فقره والجوع هو ذات الجوع الذي يعاني منه، وقارئ الدلتا سيرى في الواقع المعاش واقعه، فصور الفقر والعوز وحالات العجز هي حياته بكل ما فيها من معاناة، وإن هذه الصور تمثل حالة التحول المتلاحقة في بيئتهما الهادئة ذات التراحم والتعاون والتشارك في لقمة العيش؛ فالرأسمالية الجشعة بدأت تغزو القرية المصرية، فالشيخ الذي يخطب في مسجدهم من وقت لآخر تحول إلى رجل دين رأسمالي يمتلك الأموال ويتاجر في كل شيء، حتى في الدين وأفكار الناس وأوجاعهم "كان أستاذ اللغة والشريعة بالجامعة يأتي في الإجازات إلى البلدة بالصدفة(٧) والأكثر وضوحًا في التغيير الطارئ على القرية المصرية، الفقر والجوع اللذان راحا يتوغلان في تلك البيئة الأقرب للتكافل الإنساني الاشتراكي، فبدأت علامات الجوع تلتهم الأسر، فلا يجدون لقمة العيش، يبيتون جوعى في ظل تواري روح التكافل عن سلوكيات أهل القرية، فأسرة الحاج هاشم الثرية التي تواجه بيت أسرة زغلول لا تفتح أبوابها، ولا تقدم لهم ما يساعدهم على الحياة وقتل الجوع ولو على سبيل العمل لا الصدقة، بل إن أبوابهم دائما مغلقة في وجههم "مفيش وراهم غير قفل الباب"(٨)

يكشف البساطي ذلك التغير الساعي إلى قتل روح التعاون والتكافل الاجتماعي؛ لذلك اختار القرية لتكون مكان أحداث الرواية الرئيسة؛ ليعلن الخطاب الروائي الماركسي ذلك الخطر الرأسمالي الذي يسعى إلى تغيير وجه مصر الحضاري المسالم؛ ليصبح طوفانًا رأسماليًا يجرف في طريقه كل شيء: القيم الإنسانية، والنقاء،والتكافل الاجتماعي الذي كانت تمثله القرية التي هي عنوان الوطن مصر.

وفي نقلة مكانية يراوح النص بين روح القرية النقية ذات الطابع الماركسي والمدينة صاحبة التوجه الرأسمالي، موضحًا أن الإنسان الفقير يستطيع أن يحيا بسلامة وهدوء في القرية رغم الفقر والعوز والمعاناة، دون أن يفرط في مبادئه،وأخلاقه وكرامته، عكس المدينة الرأسمالية

التي تقوم على فكرة الاستهلاك، فكل شيء فيها معروض للبيع والشراء حتى الإنسان في ظل غياب روح التكافل الاجتماعي، وهذا ما كشفه حوار طلبة العلم الذين يدرسون في الجامعات المصرية المختلفة.

إن المكان في النص الروائي يلعب دورًا كاشفًا للهجمة الرأسمالية على مصر في أوائل القرن الحادي والعشرين، تلك الهجمة التي سعت إلى تغيير الروح الاشتراكية في مصر، وشعبها، او نجحت في ذلك. لقد بدأت الصفات الإنسانية في الشخصية المصرية في التغيير والاستبدال؛ فحلت محل روح التكافل والتعاون روح الأنانية والاستهلاك التي أنتجت الجوع والفقر. لقد وقفت القرية بتاريخها القديم في وجه الرأسمالية الجشعة وقيم الاستهلاك، فجاءت الروح الإنسانية بادية على فقير القرية وعلى البسطاء من حوله، الذين يحيطون به ويقدمون له ما يسد جوعه وجوع أبنائه، لكنَّ تلك الروح بدأت تختفي، وتسيطر روح الرأسمالية والثراء والاستهلاك.

الاغتراب

"التفرقة بين الحرية والاغتراب –كما رأينا– كانت اللحن الرئيس في تطور ماركس الفلسفي والسياسي، وما رآه هيجل وفيورباخ في تاريخ (التفكير الإنساني)، رآه ماركس في تاريخ الإنتاج الإنساني والحياة الاجتماعية_ لقد كان الاغتراب هو ما اكتشفه ماركس في وقائع الاقتصاد السياسي"[٩]، الاغتراب الذي يصيب الإنسان فيفقده القدرة على الإحساس بإنسانيته أو قيمة العمل الذي يقوم به، ويضطر تحت ضغط الوضع الإنساني المهدور أن ينزوي تاركًا عمله ومنسحبًا من الحياة كما فعل (زغلول) بطل رواية "جوع"، الذي عانى من فقد حريته وقدرته على التأقلم مع النظام الرأسمالي في العمل، هذا النظام الذي يهدر كرامته في المواقف كلها، وحاول أن يتكيف معه أو يتجاهلهلكنَّه لم يستطع؛ لأن فقد الإنسان لقدرته على السيطرة أو التحكم فيعمله ماديًا ومعنويًا يعد نزعًا لإنسانيته كما يسميه ماركس، وإن فقد الإنسان السيطرة على إنتاج عمله هو ما يسميه ماركس "الاستغلال"، وهو مصطلح لا يعنى أن ماركس يقصد به أنَّ الرأسمالي يحصل أكثر مما ينبغي أو أكثر مما هو "معقول"؛ بل يتضمن المصطلح أنَّ ما يخص إنسانًا ما أو مجموعة من الناس بصفة عامة، إنما يتملكه الآخرون أو بعض الآخرين بصفة خاصة.[١٠] إن عملية الاستغلال تتجاوز الجوانب العملية

والمادية إلى الجوانب الإنسانية محاولةدعس الكرامة الإنسانية، فـ(زغلول) الرجل القوي المخلص في عمله لا يستطيع أن يستمر في عمله لمدة طويلة؛ بسبب شعوره بالاغتراب الذي نتج عن عمليات الاستغلال الإنسانية وهدر الكرامة "وعاجبك ايه في قعدة البيت

- لا يرد
- مأحبش حد يسب أمي
- ومن شتمها؟
- الزباين مرة. والمعلم صاحب القهوة مرة .آهو
- ويشتموها ليه؟
- اسأليهم شتيمة الأم مزاج عندهم(١١)

تسعى الرأسمالية إلى تحويل العامل إلى سلعة مادية تتقاضى أجرًا نظير كونه سلعة، وعليه أن يرضى بكل عمليات الاستغلال الرأسمالية التي تجاوزت في حالة (زغلول) حد الاستغلال المادي إلى الاستغلال المعنوي والإنساني، طالبة منه أن يتحمل عملية الاستغلال وهدر الكرامة الإنسانية، لكنه لا يقبل ذلك، وتتعمق داخله عملية الاغتراب؛ فيترك عمله، ويعود للانزواء في بيته رغمعوزه الشديد "يومان بليلتين يظل نائمًا"(١٢)

إنَّ عمليات الاستغلال الرأسمالية تخاطب العوز والفاقة عند العامل الفقير الذي يسعى خلف لقمة عيشه، تدفعه إلى الاغتراب النفسي والاستسلام لتلك المحاولات؛ ليفهم أولاً أنه يحصل على أجره مقابل تحوله إلى سلعة مستسلمة لصاحب العمل، وهذا ما يدفع (سكينة)زوجة (زغلول)إلى الاستهانة بما يحدث مع زوجها وتتساءل "كل مرة عنده سبب يقوله، وماذا لو شتموا أمه أو أباه، انهدت الدنيا، الواد بيسمع شتيمته ويسكت.(١٣)

تنازلت (سكينة) عن إنسانيتها، ورضيت أن تتحول هي أو زوجها إلى سلعة تغترب فيها، وتفقد كرامتها الإنسانية في سبيل الأجر الذي تتحصل عليه، وتحقق للرأسمالية ما تريد. "والطبقة البروليتارية على حد تعبير هيجل هي في المذلة، ثورة على هذه المذلة يدفعها إليها التناقض بين طبيعتها الإنسانية وظروف حياتها التي هي نفي شامل وحاسم فوري لتلك الطبيعة(١٤)، هذا التناقض هو الذي دفع (سكينة) زوجة (زغلول)إلى التساؤل حول ترك زوجها للعمل بسبب الشتائم، والتناقض والعوز هما اللذان دفعا (زغلول)إلى العمل مرة أخرى،

رغم الإهانات المتكررة من صاحب العمل له، لكنَّها كانت عودة مؤقتة "وعمل زغلول في مقهى على النهر، هو رأى الزبائن هناك من قبل، وقال إنهم ليسوا من النوع الذي تشتم الأم"[١٥]، كان زغلول يمني نفسه ويقتل الخوف داخلها منالتطاول وهدر الكرامة، فراح يصدق أوهامه، لكنَّه لم يهنأ بهذه الأوهام؛ فالرأسمالية تحفِّز أتباعها إلى فكرة التسيُّد وإحكام السيطرة على العاملين عبر الاستعلاء فتصبح صفات الاستعلاء وانحطاط القيم الإنسانية من أهم الصفات المميزة لهم، وتصبح سلوكياتهم مليئة بالتعجرف والتطاول المادي والمعنوي تجاه طبقة العمال الكادحين.

"وقبل أن يقبض أجره بساعتين شتم بعض من الزبائن أمه وأباه، وبلعها وسكت، واستلم راتب الأسبوع وبقي في عمله"[١٦] "إن البروليتاريا تنفِّذ الحكم الذي أصدرته الملكية الخاصة على نفسها بإنجابها البروليتاريا، كما أنها تنفذ الحكم الذي أصدره المأجور على نفسه بإنتاج الثروة للآخرين، والبؤس لنفسه[١٧]فيصور النصُ الروائيُّ البؤسَ الذي يقبع فيه (زغلول) ورضاه المجبر عليه،وصار فيه سلعة، مع الربط بين تقاضي الأجر وعملية الشتم؛ فقبيل تسلم (زغلول) أجره بساعتين تم التطاول عليه، وكأنها عملية إذلال ممنهج لنفس العاملالفقير ؛ فلو تجرأ وتمرد وأظهر رد فعل تجاه المهانة ومحاولات التسيُّد من قبل الرأسمالية المالكة لحُرم من أجره؛ لذلك ينصاع (زغلول) للمهانة ويتسلم أجره، ليس نظير عمله فقط، إنما نظير استسلامه لفكرة التسيُّد الرأسمالية "وبقي في عمله"، إنها محاولة الرضا بالبؤس المفروض عليه من قبل الرأسمالية الجشعة؛ لكنَّ الرضا كان مؤقتًا؛ فنفس زغلول العزيزة،تأبى الاستمرار في عملية الإذلال الممنهج، والاستسلام لهدر الكرامة؛ لذلك "شتموا أمه وسكت، والثانية وسكت، والثالثةرد الشتمة، وانهالوا عليه بالضرب حتى صاحب المقهى شاركهم، ورموا به خارج الكراسي، إصاباته كثيرة.[١٨] تمردت النفس الإنسانية الماركسية المثالية على محاولات التسيُّد الرأسمالي، وثارت لنفسها، وردت الإهانة؛ فتعرضت للضرب، لكنَّها لم تستسلم لهم،فقال عند عودته "بس الجلابية سليمة ولا قطع واحد"[١٩]، فالجلابية هنا عنوان الستر النفسي للذات الإنسانية، فالكرامة سليمة بلا أية خدوش أو جروح وجدانية أو نفسية، فالستر قائم والكرامة محفوظة؛ لأن الإهانة ردت بمثلها، وبقية النِّديَّة قائمة بين طبقة البروليتاريا المحكومة والرأسمالية الحاكمة.

تعاني مجتمعات الرأسمالية من الاغتراب وتبعاته، فمن أجل الحفاظ على المادية ورأس المال يتنازل الإنسان عن أهم أسباب سعادته الإنسانية، فالطبقة الرأسمالية "تجد في هذا الاغتراب الذاتي ثباتها وازدهارها، وقوتها الخاصة، إنها تجد فيه مظهرًا للوجود الإنساني".(٢٠) أبطال رواية "جوع" الرأسماليين يتمسكون بالثراء مع الاغتراب، لا يفكرون مطلقًا في أن يتخلَّوا عن وجودهم الرأسمالي؛ ظنًا منهم أن المال هو الوسيلة الوحيدة للسعادة في ظل رؤيتهم لبؤس الطبقات الدنيا، وفي طريقهم لرأسماليتهم لا يتورعون عن الظلم والقهر والاستعلاء، الذييقودهم إلى الاغتراب، فالحاج عبد الرحيم استسلم للرأسمالية؛ فترك نفسه للانعزال والغربة معتقدًا أنه السبيل الوحيد للسعادة والراحة والهدوء، فلما عاد إلى وطنه عانى من الاغتراب داخل ذاته(بيته)، "كان رجع من بلاد بّره، فوجئ من رآه بحجمه الذي زاد خمسة أضعاف ورقبته التي اختفت، وحشرجة صوته، وقيل إنه المرض. قدماه لم تتحملان كل هذا الثقل".(٢١) أثَّر الوضع الذي وصل إليه الحاج عبد الرحيم في حياته الخاصة والعامة؛ فانعزل وتوارى، وعندما فكَّر في العودة إلى الحياة لجأ إلى (زغلول) ابن الطبقة الدنيا، الفقير الذي استطاع ببساطته وإخلاصه أن يعيد للحاج عبد الرحيم الحياة من جديد"استلقى الحاج على السرير. تنهد وقال: آه يا زغلول. أديني أشرب ماء، شرب وتمدد إلى ركن السقف كما اعتاد: آه يا زغلول أما يومين الواحد حتى لو مات كده ما يزعلش.(٢٢)

يعرض محمد البساطي لنا اغتراب الطبقة الرأسمالية عبر مقارنة بين الطبقتين الرأسمالية والبروليتارية؛ ليبرز حالة الرضا والقناعة والصحة والإخلاص الذي يتميز بهاأبناء هذه الطبقة بالمقارنة مع أبناء الطبقة الرأسمالية، فنظرة سريعة نلمس تميز حالة زغلول النفسية والوجدانية والصحية عن حالة الحاج عبد الرحيم الثري الرأسمالي، الذي فقد قدرته على مواصلة الحياة؛ فزاد وزنه وعجز عن الحركة، وهجرته زوجته وخادمته العجوز، ولولا وجود ذلك البرولتياري الذي يؤمن بالتكافل الإنساني ما استطاع الحاج عبد الرحيم أن يعود للحياة ويهنأ بها. لم يكن الحاج عبد الرحيم هو الشخصية الرأسمالية الوحيدة التي تعاني من الاغتراب بفعل الشره الرأسمالي، فلقد كان هناك نموذج ثانٍ للاغتراب الإنساني والعاطفي، فابنة الحاج هاشم رغم عملها وثروتها وثروة أبيها لم تستطع أن تحقق لنفسها السعادة؛ لأنها تزوجت على أساس رأسمالي، وتخلت عن خطيبها الأول، بفعل الطموح الرأسمالي، ولمَّا رأته في عزاء والدها

رغبت في أن تقاوم الاغتراب العاطفي وأن تستعيد حياتها "سألته شايف الأستاذ اللي في وشي على طول، بعيد لابس بدلة وشه مليان، وشنبه رفيع قوي، زي فتلة على شفته وعينه في الأرض... تروح له تعمل نفسك بتشيل الصينية وقل له في ودنه الست وداد عايزاك... وفين الست وداد؟ أنا بصيت لها وهي بصت لي وقالت خلي بالك وأنت بتوشوشه نفسك يبقى بعيد عنه ما يحبش النفس يجي عليه، وعملت زي ما قالت... والأفندي رجع بوشه بعيد ولونه تغير يبص لي وساكت، وبان إن مزاجه تعكر، وقام مرة وحدة، تعال اسمع ... وسكت ... قل لها خلاص الحكاية وانتهت سامع؟ ... هي في قعدتها بصت لي وبان عليها أنها فهمت من غير ما أقول كلمة، فظلت ساكتة، بعد شوية سألت: مشي؟ آه مشي فهم غلط، كنت بس حا أسأله عن أولاده وأسمعه يعزيني، وسكت وشية وقالت: كان خطيبي من سنين، الاسم خطيبي كنا قرانا الفاتحة اللي حصل[٢٣] لم تشفع الرأسمالية لأصحابها ولم تمكنهم – أحيانا – من الانخراط في الحياة بتلقائية، بل دفعتهم إلى الاغتراب المكاني وعدم الاندماج في المجتمع المحيط بهم، بدعوى الحفاظ على العادات والتقاليد، أو بدافع الطبقية والتعالي الرأسمالي الذي جعلهم يحيون في جزر معزولة، فأسرة الأستاذ الجامعي (رضوان) تضع نفسها في اغتراب مكاني شديد القسوة "وطوال وجودهن في البلدة لا يخرجن، ولا يزرن أحدا، ولا يزورهن أحد. نوافذ البيت مغلقة دائما في النهار، وتفتح على سعتها في الليل والأنوار مطفأة، البيت ساكت حتى صوت الراديو لا يُسمع.[٢٤]

صراع الطبقات الاجتماعية:

تقف الرواية أمام الصراع الطبقي في المجتمع المصري المتحول للرأسمالية في مطلع القرن الحادي والعشرين واصفة له، ومشيرة إلى طبيعة الصراع الجديد بين الطبقات، فكل طبقة اجتماعية تصارع من أجل الحفاظ على وضعها الاجتماعي والاقتصادي، أو تسعى إلى تحسين ذلك الوضع اقتصاديًا واجتماعيًا. فالصراع الذي يبرزه الخطاب الروائي لرواية (جوع)ليس صراعًا بين الطبقة المالكة الحاكمة وطبقة العاملين الكادحين المحكومة، إنما بين طبقتين محكومتين، تخضعان للطبقة المالكة الحاكمة، وكلاهما يقاوم من أجل الحياة الكريمة في ظل سطوة طبقة الأثرياء التي تملك وتحكم، وتعكس الرواية نجاح الرأسمالية الجشعة في إحداث شرخ واضح بين الطبقات التي تخضع لها؛ لتضمن بقاءها متسيِّدة المجتمع.

تخاف الطبقة المتوسطة الطبقة الدنيا، وتُطوّر هذا الخوف إلى الكُره الشديد؛ لأنها تخشى تطلعات أبناء هذه الطبقة للحصول على مميزات تكفل لهم الحياة الكريمة، وهذه التطلعات تهدد بقاء الطبقة المتوسطة، وتهدد وجودها المميز نسبيًا إن هي نجحت في إزاحتهم عن وضعهم؛ لذلك تسعى هذه الطبقة في إبعادهم عن الوصول إلى الطبقة المتسيِّدة؛ حتى لا يتمكنوا من الحصول على مواقعهم ومميزاتهم. تخاف الفتاتان العاملتان لدى الحاج هاشم من سكينة ابنة الطبقة الدنيا الكادحة المتطلعة إلى نيل حظوة لدى أسرة الحاج هاشم الثرية المتسيِّدة، تساعدها وأسرتها على تحمل تبعات الحياة القاسية، كانت سكينة تبحث عن عمل أو مساعدة تسد بها جوع أسرتها، لكنَّ خوف أبناء الطبقة المتوسطة كان قويًا، فقابلت محاولاتها بجفوة وقسوة "قالت سكينة إنها تريد الست هانم. وعايزاهافي إيه(٢٥) كانت الحدة بادية في رد الفتاة على سكينة؛ لأنها تدافع عن وجودها، في خدمة الطبقة الثرية والحظوة المالية عندهم. "عايزاها في حاجة، مال رأس البنت جانبًا وبانت في عينها نظرة غير مريحة، قالت حاجة إيه(٢٦) تستمر ردة الفعل الحادة وتتبعها بنظرة ريبة وقلق، وبإمالة الرأس جانبًا، وكأنها تقول لها بالفعل إني أفهمك وأفهم ألاعيبك تلك، وتطلق تحذيرًا لها، بأنها لن تسمح بأن تقترب من مكانتها ومن سادتها؛ لتحمي وضعها من أي اختراق؛ لذلك كان الرد "حاجة إيه" وكأنها تعلن الوصاية على أسرة الحاج هاشم، وتؤكد تمكنها من ثقتهم، وتعالت صيحة الغضب والغلظة لتنهرها، كي تبتعد عن تلك المحاولات؛ ولتؤكد الصراع الطبقي الواضح بينهما، "ولم تمهلها البنت قالت بغلظة أنت بقى اللي بتفتشيالكراكيب كل مرة(٢٧) كشف النص عن الصراع الطبقي المحتدم بين الطبقة المتوسطة والدنيا؛لنيل الحظوة لدى الطبقة الرأسمالية؛ فالفتاتان تحتفظان بموقعهما المتميز، و(سكينة) الكادحة تسعى لتحقيق طموحها المتمثل في لقمة العيش والمساعدة في إطعام أسرتها الجائعة، لكنَّ خوف الفتاتين اللتين تمثلان الطبقة الوسطى المتوجسة حرمها من تحقيق الطموح الإنساني البسيط، ويصور مشهد غلق الباب وتكراره تأكيد الصراع والخوف والقلق، وحرص كل منهما على موقفه "ولم تسمع غير صوت إغلاق الباب وقالت لنفسها دايما كده يقفلوه"(٢٨) إنها إشارة للمحاولات المستميتة لمواجهة تطلعات (سكينة)التي تمثلالطبقة الدنيا؛ لذلك تحقق هدف الفتاة، ولم تعد (سكينة)

تحاول الاقتراب من بيت الحاج هاشم، "بعدها خاصمت البيت الكبير، لم تعد تذهب هناك، ولا ترقب بابه".[٢٩]

خضعت الطبقة الوسطى للطبقة العليا الرأسمالية، واستطاعت أن تستعمل وعيها، فصارت أداة في يدها؛ لتحقيق مأربها الأساسي، بإشاعة النزاع بين الطبقتين الوسطى والدنيا، لتضمن هيمنتها وسيطرتها، وتحكُّمها في مجريات الأمور في أرض الواقع، فالطبقة الوسطى صارت العدو الرئيس للطبقة الدنيا؛ فهي تخاف تطلعات الطبقة الدنيا ومحاولات أبنائها الصعود للطبقة العليا، ومن ثم استبعادهم من مراكزهم، فالطبقة الوسطى تظن أنها ملزمة بمحاولة العطف على تلك الطبقة؛ للحد من طموحهم المتزايد، وحتى يضمنوا استسلامهم، وعدم ثورتهم، وعدم التجمع للمطالبة بحياة كريمة؛ لذلك "يمكن القول: إن صراعهم من أجل البقاء هو السياسة المنبثقة لإبقائهم مسحوقين".(٣٠)فحافظ النص الروائي على وضع أسرة زغلول " الفقير" المسحوق؛ حتى تضمن الرأسمالية الطبقة العليا ولاءها واحتياجهالها، فلا يستطيع أن يُغيِّر من حياته أو حياة زوجته وأولاده إلاَّ من خلال منح أو هبات السيد الثري من طبقة الرأسماليين؛ فجاءت محطات الراحة واستقرار المعيشة عبارة عن منح تمنحها له الطبقة الرأسمالية متمثلة في أسرة الحاج هاشم "فهمت أنهما تريدان أن تشاركهما الأكل، كادت تتحرك نحوهما، حين لمحت الذراع ممدودة إليها برغيف فوقه قطعة جبن وأخذته.[٣١] جاءت لقمة العيش المقدمة لـ(سكينة) منحة من الطبقة الوسطى الخاضعة للطبقة العليا"أسرة الحاج هاشم"؛ لذلك أوهمت هذه الطبقة سكينة بفكرة المشاركة ثم سرعان ما عدلت من موقفها لتضمن بقاء الفروق بينهما، ولا تكسرها، لتضمن خضوعها "كادت .. تتحرك .. لمحت .. الذراع الممدودة" إنها عبارة للحيل الرأسمالية عبر الإيهام ثم التحفيز ثم اجتزاء كل هذا في منحة تضمن الهيمنة والاستعلاء وتثبيت الوضع الطبقي كما هو دون تغيير. "لا يا زهرة اعملي أنت الشاي الخالة تعبت"(٣٢)، محاولة أخرى للتحفيز النفسي والتهيئة للقبول بالتبعية مع إيهام بالمساواة والمشاركة، سرعان ما تتبدد "أعمله أنا مفيش تعب ولا حاجة"[٣٣] إنهم يستغلون طاقات الحرمان والعوز داخل النفس الإنسانية الفقيرة؛ لتوظيف قدراتهم البدنية والحرفية لمصلحتهم، "عملت الشاي وحملت الأكواب والأطباق الصغيرة على صينية وذهبت إليهما"[٣٤] استطاعت الفتاتان/الطبقة الوسطى إخضاع سكينة /الطبقة الدنيا وتهيئتها لقبول

ما يمنح لها دون اعتراض، وتحجيم الطموح داخلها؛ لتتقبل ما تريده الفتاتان؛ لذلك جاء الإعلان عن المنحة الكبيرة لسكينة من السيد الحاج هاشم، تلك المنحةالتي تضمن تبعية سكينة وأسرتها.

"قالت زبيدة إن الحاج كلمها حين دخلت لتأتي بالصينية قالت: إنه يريد من يبيت هنا"(٣٥) منحة كبيرة لطبقة معدومة، تضمن من خلالها لقمة العيش، التبعية والخضوع في مقابل لقمة العيش لسكينة وأسرتها، إنه الصراع الطبقي النفسي الذي نجح في النهاية في إخضاع الطبقة الدنيا، وإقناعها بوضعها البائس الذي لن يتغير؛ لأنهم لا يملكون مقومات النجاح، ولأنهم وفق النظرة الرأسمالية خُلقوا ليكونوا هكذا بصفات تقبل المهانة والإذلال؛ لأنهم لا يمتلكون المقومات الشخصية والعقلية القادرة على تغيير واقعهم.

كشف خطاب "جوع" ممارسات الطبقة العليا تجاه الطبقتين الوسطى والدنيا؛ حيث أشعلت الصراع بينهما، فالطبقة الوسطى أساءتمعاملة الطبقة الدنياوحاولت هزيمتها نفسيًا؛ حتى تضمن عدم تهديدها لبنية السلطة الطبقية. قصد الخطاب الروائي التأكيدعلىأن "مثل هذه الضغوط وعدم الاستقلال الإنساني لا يمكن تقويضه بدون تقويض الرأسمالية والنظام الشامل للملكية الفردية الذي منه نمت الرأسمالية"(٣٦)

الاستهلاك وصناعة الذات المتعالية:

من الأيديولوجيات التي يرتكز عليها الحلم الرأسمالي نظرية تسمَّى الاستهلاك، وهي تقول: إن مدى أفضلية الشخصية مرتبط بما يشتريه، بما يملكه أو يحوزه، ومن هنا نلحظ أنها تحقق ثلاثة أهداف أيديولوجية في نفس الوقت: الأول: يتعلق بالوهم الذي يقول إنني إنسان جيد مثل الأثرياء طالما أشتري ما يشترون، وهذا يحقق الهدف الثاني في الوقت نفسه و هو ملء جيوب المُصنِّعين، والهدف الثالث هو تضاؤل الذات الفقيرة أمام ما يمتلكه الثري، وما يُزيّن به حياته، فهذه المسببات تدفع الذات الفقيرة إلى الانهزام أمام الطبقة الثرية، ومن ثم الخضوع لها، والسير في ركابها، منفذة ما تريد. وهذا ما أبرزته الرواية عندما وقف (زغلول) الفقير في سرادق "عزاء زوجة الحاج هاشم"، وأرادت ابنتها أن تتعالى أو تتباهى أمام الفقير الذي جاء لمعاونتهم؛ فراحت تؤكد له بنبرة تحمل بين ثناياها التباهي والاستعلاء المادي،

حجم السرادق وقيمته، والقارئ الفخيم الذي جلبوه خصيصًا لإحياء العزاء "وسألتني إن كنت سمعته؟"

بيقولوا كويس.

جبناه من البندر

بيشكروا فيه

أول مرة يجي البلد

أصل سعره غالي قوي.[٣٧] إن ابنة المتوفاة الرأسمالية تؤكد سلطانها وثراءهاوقدرها من خلال قدرتها على إحضار القارئ الذي لا يأتي إلى البلدة إلا إليهم، فسعره –كما ذكرت– "غالي قوي" فالإشارة إلى السعر هي إشارة استهلاكية، تؤكد أنهم بقدر ما يملكون هم متسامون على من حولهم.

"تعتمد الرأسمالية على مذهب الاستهلاك؛ فإنها تشجع مبدأ قيمة سمة التبادل"[٣٨]؛ ليكون المبدأ الرئيس للتعامل مع العالم من حولنا، فليس هناك شيء يساعد الرأسمالية أكثر من زرع فكرة عدم الرضا بما أمتلك، وبالتالي دفع إلى استهلاك المزيد مما قد يبدو لي أفضل وأقدر على إثارة إعجاب الآخرين به.[٣٩]

تُعبِّر راوية "جوع"عن حالة المجتمع المصري إبَّان فترة التحولات الاقتصادية مطلع القرن الحادي والعشرين، وتضعنا أمامها كي نعي عبر التأويل ما سيحدث لنا من تغيّرات استهلاكية، ستحول المجتمع إلى ساحة سباق رهيبة حول الامتلاك والاستهلاك؛ كي يشعر الإنسان داخل المجتمع الرأسمالي بقيمته وقدره اللذين يرتبطان بمقدار ما يملك وما يستهلك.

الرأسمالية وتسليع الجسد:

حوَّلت الرأسمالية كل شيء إلى سلعة، ومعها تحول المجتمع إلى سوق كبير، قائم على عمليات التسليع الممنهج؛ فكل شيء في هذه الحياة قابل لعملية التسليع الرأسمالية، ومع التسليع تنهزم القيم والأخلاق والمقدسات، وتحل محلها رؤى السوق وقيمه"إن نمط إنتاج الحياة المادية يحدد عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بشكل عام، فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم؛ بل على العكس من ذلك، إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم[٤٠] فوعي السيدة الفقيرة التي تسكن في حجرة متواضعة يتحدد وفق وضعها

الاجتماعي والمادي، كما أنَّ الفقر وتواضع الحال هو الذي يشكل وعيها، الذي سيبني – مجبرًا– عملية تسليع الذات والجسد، حتى تستطيع أن تواجه تبعات الحياة أو تضمن لنفسها البقاء في ظل السوق الكبير الذي صنعته الرأسمالية "الحجرة الأخرى تسكنها امرأة في الأربعين تقريبًا، تقيم وحدها، تخرج أول الليل، وتعود ضحى اليوم التالي، وتأتي أيام تبقى في حجرتها لا يسمع لها صوت، ولا ضجَّة تأتي من ناحيتها، ملابسها محتشمة ولا تضع ألوانًا بوجهها... دورة المياه مشتركة، اعتادوا دون اتفاق أن يسعل الواحد منهما في صوت مرتفع لينبّه الآخر إلى أنه في طريقه لدورة المياه.(٤١)تشكل حالة الفقر الشديد فكرة التسليع، التي تلجأ لها السيدة الفقيرة لتوفير أسباب المعيشة.

"فوجئ بها تجلس إلى منضدة في مواجهة الباب، وجاءت عيناه في عينيها ... هو اختلس النظر نحوها ومعها رجل في الخمسين أو أكبر قليلاً، يده تسقط مرات على يدها فوق المنضدة، يتحرك إصبع منها خفيفًا بين أصابع يدها ثم يبعدها، الجرسون حين جاء بالطلبات مال قليلاً ... واستند بيده الخالية إلى كتفها، وبعدها خرجت والرجل وركبا تاكسي... صاحوا من حوله وحدة من إياهم"(٤٢)إنها عمليات تسليع واضحة، الجسد مقابل المال.

يغزو صوت الرأسمالية مجتمع النص معززًا "فكرة أن قيمة الإنسان مادية بقيمة ما يملك"(٤٣) إن صورة مجتمع النص الروائي تكشف جشع الرأسمالية وسطوتها، ودفعها المجتمع إلى الانحراف والتسليع الذي يُفقِد الإنسان كرامته، ويفرغ الحياة الإنسانية من جوهرها.

تأثَّر المتعلِّمون والمثقَّفون من أبناء الطبقة الوسطى بفكرة التسليع الرأسمالية، وراحوا يمارسونها، ويتباهون بها؛ لأنها تعبر عن مكانتهم أو فحولتهم المادية والجسدية "أول ما قلت شال أخضر في أسود عرفت، ولا واحدة جت عندي إلا ونفس الشال على كتفها".(٤٤)

كشفت أحداث الرواية أن الرأسمالية نجحت في "اختزال جوهر الإنسان إلى علاقة اقتصادية، وإضفاء طابع مطلق على العلاقات الإنتاجية، واعتبار الإنسان في المحل الأول منتجًا اقتصاديًا"(٤٥)، أو بمعنى آخر سلعة خاضعة لمنطق السوق؛ حيث العرض والطلب، البيع والشراء، واحتل جسد المرأة في هذه العملية المقام الأول، المتعة مقابل المال، متعة الأثرياء مقابل المال جسد الفقيرات والمحتاجات.

صناعة النخب الرأسمالية:

"قدَّم ماركس فلسفة للتاريخ تمتد جذورها إلى الشروط المادية للحياة؛ أي أن البحث فيما سماه هيجل بالمجتمع المدني، يفسر على ضوء الاقتصاد السياسي، فأفراد المجتمع يدخلون في علاقات مختلفة مستقلة عن إرادتهم، هي علاقة إنتاج يتناسب مع قوى الإنتاج الخاص بمرحلة معينة من مراحل تطورهم، ومجموع هذه العلاقات تكون التركيب الاقتصادي للمجتمع، الذي يكون بدوره أساسًا للتركيب القانوني والسياسي الذي يعلوه، والذي يحدد صورة محدودة من الوعي الاجتماعي، وعلى هذا الأساس تؤثر طرق الإنتاج المادي على الحياة الاجتماعية والسياسية والفكر عمومًا[٤٦]، فالمناخ الاقتصادي لحقبة الرأسمالية الجديدة في مصر، يفرض خلق وعي جديد لأفراد المجتمع، هذا الوعي هو الذي تتشكَّل على أساسه علاقات المجتمع، وهذه العلاقات هي التي تخلق الأيديولوجيا الناشئة عبر تطور الفكر الاقتصادي للمجتمع المصري، مع حقبة التغير إلى الرأسمالية، وهذه الحقبة هي التي تفرز نخب الرأسمالية، أو تخلق ما يعرف بالانتخاب الرأسمالي للأفراد والمهن التي ستتولى تبني فكره ونشره والتنظير له ليسود المجتمع؛ لهذا ظهرت فكرة العالِم الرأسمالي، الذي يجمع بين قداسة الفكر لدى أفراد المجتمع، وسطوة المال، وبفكره وعلمه يفرض وجود الرأسمالية بوصفها نظامًا مقبولاً ومستحسنًا دينيًا.

"كان أستاذًا للفقه والشريعة بالجامعة، ويأتي في الإجازات إلى البلدة، يرى أطيانه ومصالحه الأخرى التي لا يفصح عنها[٤٧]تنتخب الرأسمالية الشخصيات ذاتالفاعلية المجتمعية للتأكيد على جوهرها وقيمتها، وشرعنة وجودها، فالأستاذ الجامعي _يتميز بقيمة مجتمعية محترمة خاصة في المجتمعات الريفية_، تحوّل هذا الأستاذ إلى تاجر يوظِّف مكانته العلمية والدينية لترسيخ موقفه الرأسمالي، والتأسيس لقبول المجتمع للتحول الاقتصادي، وهذا ما كشفه الخطاب الروائي عندما أشار إلى اكتشاف الناس لممتلكاته المتعددة، فالنظرة الاشتراكية أو المثالية تجاه أستاذ الجامعة وعالم القرية كانت تحجب رؤية أهل القرية لرأسماليته، فـ"الأهالي يكتشفونها بالصدفة، من كان يصدق أنه صاحب محل قماش النهضة بالسوق، ويقوم بإدارته واحد من أقارب أمه التي كانت من بلدة أخرى، أو أنه يشارك في تربية العجول.[٤٨]لقدلمس التحول كل أفراد المجتمع، وبدأت ثقافة الحقبة التاريخية تفرض نفسها على الجميع؛ لتناسب

حقبة التحول الرأسمالي في مصر، فعالم الدين انشغل عن علمه بتجارته، وكذلك أستاذ الجامعةوالمهندسوالطبيب كلهم تحولوا لرأسماليين، ووظفوا مهنهم لتكون وسيلة ناجعة في الاستثمار؛ لذلك نجد رضوان الأستاذ الجامعي وعالم الدين يُروّج لنفسه رأسماليًا من خلال ارتقاء منزلة الإمام والخطيب والمفتي في قريته، يكتسب من خلالها السمعة الطيبة في التجارة والاقتصاد، فهو كما يرونه فوق المنبر أو الجامع وقورًا خيرًا، وانتشر علمه وذاع صيته، واتخذ من تصديه لفتوى الناستأكيدًاعلى نزاهته ونجاحاته، فالرجل كان يعلن عن نفسه من فوق منبر جامع القرية.

"يزدحم الجامع على آخره، تفرش الحصر خارجه؛ لتستوعب المصلين الذين جاءوا من بعيد، تركوا الجوامع القريبة منهم، ويكون أعيان البلد تبرعوا بشراء حصر جديدة وحنفيات، والسباكون قاموا بتسليك مواسير الصرف التي تطفح دائمًا، وتنساب بروائحها في الشارع.(٤٩) بدت العملية وكأنها انتخابات سياسية ودعاية للمرشح، فأعيان القرية يتبرعون بالحصر والمال لإصلاح الحنفيات والمواسير،يحدث هذا فقط وقت مجيء الشيخ الدكتور (رضوان) للخطبة في الجامع، رغم أن الحنفيات والمواسير تالفة طيلة العام، ولا أحد يحاول إصلاحها، فالجميع يسارعون للترويج لأنفسهم اقتصاديًا مستغلين وجود أحد رجالات الأعمال الذي يميزه العلم الديني،الجميع يروجون للفكر الرأسمالي بما يقدمون من تبرعات هي في الأساس دعاية رأسمالية لأنفسهم ولفكرهم،موظفين الدين وتطويع خطبة الجمعة لذلك، فكل شيء أمام التحول الرأسمالي فقد قداسته وصار وسيلة لإنجاح عملية التحول الاقتصادي.

للشيخ رضوان وجوه عدة، ففي الحياة مع البسطاء والمريدين باسم الوجه منطلق البشاشة، وفي المسجد حيث قناع الشيخ المتبحر في العلم له وجه مختلف عن واقعه"ما أن يعتلي المنبر حتى يصبح رجلًا آخر غير الذي عرفوه، تفارق البشاشة وجهه، ويتخذ طابعًا منذرًا، خطبته عنيفة"(٥٠)،فتتغير الملامح وتنذر الكلمات والعبارات جموع الفلاحين البسطاء الذين جاءوا يسمعونه بوصفه نخبة علمية، وهو لا يُضيّع الفرصة ويأخذهم بالوعيد والتهديد، بعيدًا عن الواقع والحياة وكيفية علاج مشكلاتها، لا يتحدث عن الجوع والجشع المستشري بينهم، بل يروِّج لنفسه راسما صورة نخبوية متعالية أمام المصلين الذين جاءوا من القرى المجاورة، صورة تدفع البسطاء الحائرين إلى اللجوء إليه؛ ليجيب عن تساؤلاتهم التي عجز عقلهم عن

الإجابة عنها، فـ(زغلول) البسيط يلجأ للشيخ للإجابة عن التساؤلات الفلسفية التي تدور في عقله، ومع تساؤلات زغلول تبرز صورة الشيخ الحقيقية، وليست الصورة المرسومة من قِبله، بل تتكشف شخصيته وحالة الانفصام التي يعاني منها، فعندما اقترب منه زغلول وجلس أمامه ليسأله، كان الرجل الرأسمالي الشيخ الدكتور يفكر بطريقة مختلفة تماما عن صورته المثالية المرسومة له في وجدان مريديه ومستمعيه ومنهم (زغلول)، فالمقارنة بين الصورتين تبرز حقيقة الرجل "قرفص زغلول غير بعيد عنه، تقلُّص خفيف برقبته، كان يحركها من جانب لآخر، لمحه الشيخ وتمتم متعجلاً من دي؟ الست اللي دخلت؟ التفت (زغلول) ولم ير أحدًا، عاد ينظر إلى الشيخ الذي استقر في قعدته، وعيناه على باب المحل. قال زغلول وكان ينبش الأرض بقدميه: أول ما شفتك يا أستاذنا قلت أنت اللي يفتيني، رمقه الشيخ في ضيق، وتمتم هش بعدين.(٥١) صورة مثالية رسمها الأهالي للشيخ، لكنَّ الواقع مختلف تماما، فالشيخ مشغول بتجارته النسائية، فهو يفكر في السيدة البدينة الجميلة التي دخلت الدكان، شغلته عن كل الناس، وكشف وجودها أغواره النفسية الرأسمالية الساعية إلى اكتناز النساء في بيته، كما يكتنز المال والبضائع؛ ولأن تفكيره انصب على شهواته فلم يلحظ زغلول، أو بمعنى آخر قيمة زغلول السلعية تضاءلت جدا أمام السلعة الأعلى والمستهدفة من قبل الشيخ؛ لذلك قابل تساؤلات زغلول أو سعيه للفهم بالضيق والضجر "رمقه الشيخ في ضيق" وعندما هيمن الضيق عليه بدت رؤيته الاستعلائية في المعاملة للبسطاء في الظهور؛ فتعامل مع زغلول الفقير، وكأنه يتعامل مع دابة فنهره قائلا "هِش" وتستخدم كلمة "هش " عند أهل الريف في التعاملمع الحيوانات والطيور والذباب، وكأن الشيخ بنظرته الرأسمالية الاستعلائية لم يلحظ إنسانية زغلول.

عقد الخطاب الروائي مقارنة بين نظرة الشيخ لإنسانين يتعاملان معه:أحدهما يمثل سلعة يريدها وهي المرأة فانهمك في متابعتها بنظره والسؤال عنها، والآخر زغلول الفقير الذي تعامل معه باستعلاء شديد، فلم يتحدث إليه، ولم يلحظ كلامه، وعامله وفق النظرة الرأسمالية سلعة ولا سلعة، وهو منطق التجار لا الشيوخ والعلماء، وبهذه المقارنة تكشف الرواية عن تأثيرات الرأسمالية في نفوس أصحابها، وكيف أنها تقتل الجوانب الإنسانية والأخلاقية داخل

الإنسان، وتدفعه إلى عملية تسليع البشر، وتفرض عليهم تقييم الإنسان وفق المصلحة التي سيتحصل عليها منه.

كانت تساؤلات زغلول فلسفية تحتاج إلى عالم يفهم الحرية الإنسانية، والتطور العقلي، الذي يطرأ على الإنسان، كي يفهم تلك التساؤلات ومن ثم يجيب عنها، مراعيًا الاختلافات البشرية، ومحاولاً احتواء الذات السائلة وفق الدين الذي يأمر بالحسنى والرفق بالإنسان، "وَلَوْكُنتَفَظًّاغَلِيظَالْقَلْبِلَانفَضُّوامِنْحَوْلِكَ" (١٥٩) آل عمران لكنَّ الشيخ الرأسمالي نسي هذا التوجيه الإلهي، وغلبت عليه نزعته الإنسانية الرأسمالية وضاق بالسائل؛ لأنه شغله عن متابعة سلعته الرائجة، التي يفتش عنها عبر شهوة الزواج والامتلاك؛ فقابل زغلول بالعنف والعصبية، والاتهام بالكفر، وكان هذا العنف صادرًا عن نفسية متعالية استخفت بالسائل، بوصفه رجلاً فقيرًا لا يملك أي تأثير اقتصادي "الله سبحانه خلق الدنيا والناس، وكل حاجة، وأمرهم أن يعبدوه، أقول لنفسي إذا كان خلق ده كله عايز عبادتهم في أيه، وإذا لم يعبدوه يغضب ويتوعدهم بالعذاب.[٥٢] كانت تساؤلات زغلول تساؤلات فلسفية جوهرية تمس الإنسان في حيرته وبحثه عن ذاته، ووجوده في الكون، ولم تكن تمس العقيدة بالاستهانة أو الاستخفاف، إنما هي تساؤلات تمر بكل صاحب عقل واعٍ باحث عن الحقيقة، لكنَّ الشيخ الرأسمالي لم يستوعب بسهولة أن تصدر هذه الأسئلة من هذا الفقير "الشيخ أفاق تماما واتسعت عيناه ونظر حوله مأخوذًا".[٥٣] عجزت العقلية المتبحرة في التجارة والمال عن أن تفهم هذه التساؤلات الصادرة من رجل بسيط "طب أنا فهمي شوية، إنما برضه بفكر".[٥٤] كشف زغلول عن ذاته البسيطة العاقلة القادرة على التفكير وتحتاج إلى من يفهمهما، فليس الأغنياء وحدهم الذين يفكرون، هذه الحقيقة التي عجزت عقلية الشيخ النخبوي عن فهمها"أقول لنفسي سبحانه أرسل أنبياء كثير، كل كام سنة واحد، أعرف منهمتلاته، موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، التلاتهبيدعوا لعبادة الله، وكل دعوة ولها طريقها، واللي معاهمبيقولوا إنهم الأفضل عند ربنا، ويكذبوا غيرهم، ويجي الزمن ونشوف التلات دعوات في وقت واحد، ونازلين في بعض ضرب وقتل، أقول لنفسي طب ليه؟ إذا كان لابد نبي واحد كفاية[٥٥] يستكمل (زغلول) تساؤلاته الفكرية، التي تحمل جوانب فلسفية تصدر من رجل بسيط يفهم الحياة أكثر من شيخ متعجرف يواجه تساؤلات الرجل بالحدة والعنف "بتعدل

على ربنا يا ابن الكلب.[٥٦] كانت هذه الإجابة القوية التي وجهها الشيخ الرأسمالي للرجل الفقير، وأكملها بضربة قوية "تفادى زغلول ضربة قوية كانت مصوَّبة إلى بطنه، ووقف، احتوته قبضة الشيخ فجره متراجعًا للأريكة.[٥٧]إذن قابل الشيخ تساؤلات زغلول بالضرب والإهانة، فهل لو كان (زغلول) السائل غنيًا أو مقتدرًا وله سطوة وجاه، كان سيعامله نفس المعاملة؟ لقد فقد الشيخ صوابه؛ لأنَّ الأسئلة صادرة عن رجل بسيط – وليست كما ادَّعى أنَّ الأسئلة تخالف شرع الله، أو تعد عدوانًا على الدين– تلقاها الشيخ بنظرة استعلائية لذاته، ودونية للسائل "الكافر . أنا . أنا اللي يتقال له الكلام ده".[٥٨] كيف لمثله أن يتجاسر على الشيخ ويسأله دون استئذان، وهو منشغل بشهواته، لذلك اتهمه بالكفر "يا كافر يا ابن الجزمة.[٥٩] أهان الشيخ (زغلول) ، وأهدر كرامته أمام الجميع، ومزَّق ثيابه، وقبلها مزَّق إنسانيته، وأذلَّه، وأخرجه من الملة، وعندما فكَّر في إصلاح ما فعله غلبت عليه نزعته الرأسمالية المادية "قطعت الجلابيّة. ضم جانبي الشق الطويل حول جسده، صاح الشيخ، لقريبه الذي يدير المحل، اقطع خمسة متر وارميها في وشه".[٦٠] لم يفكر الشيخ في لملمة جراح (زغلول) وجدانيًا ونفسيًا وإنسانيًا، بل باستعلاء تام طلب من قريبه أن يمنحه قطعة قماش بدل جلبابه الذي مُزِّق، باستهانة شديدة قال: "ارميها في وشه". لم يفكر الشيخ في جريمته في حق دينه وإنسانيته وإنسانية زغلول عندما حطم كبرياء إنسان لمجرد أنه يفكِّر، ولم يرد عليه من منطق الدين والعلم والإصلاح، إنما استهان بالفقير الذي جاء يسأله، ظنًا منه أن الشيخ نموذج مثالي لعالم الدين كما رآه واقفًا فوق المنبر، لكنَّ الحقيقة أنه تاجر يتعامل بمنطق التجارة والرأسمالية والاستعلاء.

الوريث الرأسمالي:

في المجتمعات الإنسانية –قبل الرأسمالية–كانت الحياة الأسرية تتميز بالقداسة والاحترام؛ ومن ثم "الاحترام الكبير لحق الأم من خلال توارث الملكية والمكانة الاجتماعية من جانب الإناث[٦١] فكان للمرأة الأم دورها المهم في الحياة الاقتصادية للأسرة، هذا الدور الذيتقوم به سكينة في أسرة زغلول، فهي التي تقوم بتدبير احتياجات الأسرة والسعي خلفها، وكذلك هي التي تستنهض الزوج والأبناء للبحث عن العمل والسعي خلف أسباب الرزق، وتسعى هي معهم خلف رزق الأسرة، محدثة نوعًا من التشارك والتعاون المجتمعي بينها وبين النسوة

الأخريات داخل المجتمع الريفي، لكنَّ هذا الدور بدأ في التراجع مع التطور الذي حدث في العالم بداية النهضة الصناعية، وحلول الرأسمالية بديلا اقتصاديًا عن تلك الأنظمة الاقتصادية القائمة على وضع الأسرة أهم نموذج اقتصادي "فالرأسمالية لقيامها على حيازة الملكية الخاصة بواسطة الرجال فقط أطاحتبحق الأم وجلبت ما يطلق عليه "إنجلز" الهزيمة التاريخية العالمية لجنس الأنثى.[٦٢] تلك الهزيمة التي تحولت معها المرأة إلى نموذج للمتعة والإنجاب، ولم تعد تمتلك أية ميزة اقتصادية كما كانت في السابق؛ لذلك تُصوّرهارواية "جوع" وسيلة للمتعة والإنجاب، فالشيخ الرأسمالي يفكر دائمًا في الزواج من أجل الإنجاب، والإنجاب هنا أقصد به إنجاب الذكر "الوريث" فلقد نجحت الرأسمالية في ترسيخ فكرة الملكيَّة الذكورية، التي معها سعى كل رأسمالي في البحث عن وريث شرعي يرث ممتلكاته ويعمل على تضخيمها، وفي حقيقة الأمر لن تكون الأنثى هي ذلك الوريث؛ فالشيخ يعاني من إنجاب الإناث؛ لذلك يسعى سعيًا حثيثًا من أجل الزواج ممن تنجب له الوريث، "قال القريبون منه من ذكر محاسنه ومن باب الشفقة عليه أنه يتمنى الصبي والله لا يعطيه، وهو صابر.[٦٣]ففي المجتمعات التي تؤمن بفكر الوريث الرأسمالي يصير عدم إنجاب الذكر الوريث سببًا للشفقة والتعاطف والحث على الزواج من أجل تحقيق الهدف "باح لهم في قعدة أنه يفكر دائمًا فيمن يرثه ويحمل اسمه.[٦٤] باح الشيخ بألمه النفسي الناتج عن الإيمان الرأسمالي بفكرة الوريث، فهو دائم التفكير فيمن سيرثه ويحمل اسمه، وكأن بناته الإناث لن يحملن اسمه، لكنَّه الإيمان بالفكر الرأسمالي الذي غلب داخله الإيمان بالله وبالمساواة بين الذكر والأنثى، وبين البشر جميعا؛ فقتلت الرأسمالية فكرة المساواة بين البشر وبين الأبناء داخل الأسرة الواحدة. ومن منطلق فكرة الوريث يبادر الناصحون "تزوج يا شيخ رضوان ولا أحد يلومك، وطلبك مشروع.[٦٥] والشيخ لا ينتظر النصيحة فهو يؤمن بالفكرة ويسعى نحوها بإلحاح مصدره فكرة الوريث، "قلتها لكم متزوج من ثلاث حقه المشروع ... وسبحان الله لم يأت الصبي والرابعة أكيد في الطريق.[٦٦]

<u>الجماعة ... التعاون الماركسي والواقع المجتمعي:</u>

"تقدم الاشتراكية (الماركسية) في عرضها رؤية شاملة عن البشر كمخلوقات اجتماعية قادرة على التغلب على المصاعب الاقتصادية والاجتماعية بالاعتماد على قوة الجماعة بدلاً من

المجهود الفردي البسيط، وتلك رؤية جماعية؛ لأنها تؤكد على قدرة البشر على العمل الجماعي ورغبتهم وقدرتهم على السعي وراء أهداف معينة بالعمل معًا، وهو ما يعارض السعي المنفرد وراء المصلحة الذاتية للأشخاص".(٦٧) تلك هي الرؤية الفكرية التي قامت عليها رواية "جوع"للبساطي، فالرواية تعد لوحة فنية، تبرز العمل الجماعي وقيمته وأهميته في بناء المجتمعات في حالات السلم المجتمعي، الذي ينتج النجاح لتلك المجتمعات، فتعقد مقارنة بين أسرة زغلول –التي تعد هي وحالها محور الرواية الرئيس– وحالات الأنانية التي تسود المجتمعات في ظل سيطرة الرأسمالية وغياب روح العمل الجماعي البناء، فـ(زغلول) البطل الاشتراكي يؤمن إيمانًا عميقًا بالعمل الجماعي والتعاون لا على المستوى الفكري والنظريفحسب؛ إنما على المستوى العملي"ما من معزى في البلدة إلاَّ وقصده، يمشي إليه ما يمشي ويظل بالسرادق حتى يختم المقرئ، ويساعد في جمع الكراسي".(٦٨) يسارع في مواساة الجميع وخدمة الجميع تأكيدًا منه على روح الإنسانية التي تمنح الإنسان الهدوء والطمأنينة والاستقرار النفسي والرضا عن الذات.

وتبدو قداسة فكرة الجماعة والتعاون التي يبرزها الخطاب الروائي لحظة مجيء جهاز العروسة، ولحظة نقل الدولاب عندما عاودتهم ذكرى سقوط الدولاب للعروسة التي ماتت كمدًا، في تلك اللحظات عندما دخلت زفة العروسة "تذكروا ما مات، الكل من لحظة ما دخلوا الحارة افتكر، والبعض همس –رحمة الله عليها– راحت في شربة مية.(٦٩) تأزم الموقف النفسي وتداعت الذكريات المؤلمة وخاف الجميع من تكرار ما حدث "الأربعة على الكارو مترددين ... الأربعة يرمقونهم من فوق العربة صامتين ولا يتحركون.(٧٠) في تلك اللحظة يظهر زغلول المؤمن بأن البشر "رفاق، أو إخوة أو أخوات يرتبطون ببعضهم بروابط الإنسانية المشتركة وهو ما يعبر عنه مبدأ الإخاء"(٧١)

" تقدم زغلول من الكارو وتكلم مع الأربعة، التفتوا إليه ووزنوه بنظراتهم، ربما كانوا وحدهم من بين الجميع الذين عرفوا قدره(٧٢) أعلى زغلول من قيمة التعاون والتشارك وروح الجماعة، وتقدم لينقذ الموقف المتأزم، "وصل أخيرًا ودخل الدولاب البيت وضجت الحارة بالزغاريد، ولا أثر لزغلول، تلفتت هنا وهناك ولم تلمحه.(٧٣) أنقذ زغلول الموقف ثم رحل، لم يشعر به أحد؛ لأنه فعل ما فعل إيمانًا بمبدأ الإخاء، لا ينتظر أجرًا ولا شكرًا،؛ لأنه يُرضي ضميره

الإنساني، لذلك يجيب على زوجته عندما تسأله "وعلى كده قبضت حاجة؟ أستغفر الله ثواب يا ولية ثواب".(٧٤)

"آمن الاشتراكيون بأن البشر حيوانات اجتماعية، لذلك فإن العلاقات الطبيعية بينهم ستقوم على أساس التعاون.(٧٥) فالتعاون هو الذي يضمن لأسرة زغلول الحياة في محيطها الاجتماعي رغم حالة العوز الشديد، التي تعاني منها الأسرة، فحضور فكرة التعاون تضمن لهم الحياة ومواصلة المسيرة "كل مرة تنتظر طلعة النهار؛ لتمر على من تعرفهن تستلف رغيفين(٧٦) إنها روح التعاون الإنساني – التي تدعو لها الماركسية؛ لتسود بين أفراد المجتمع، التي تسمح لمثل هذه الأسرة بالحياة والحصول على ما يسد رمقها، عندما لا تملكالمال لشراء الطعام للأطفال، وبنفس روح التعاون التي تسود المجتمع الريفي مجتمع الرواية ترد سكينة ما استلفت بفرح وسعادة بالغين "ما أن تعود من الفرن حتى تبدأ السداد، تذهب بنفسها كما أخذته ترده عيب أن ترسل الولد به".(٧٧) إن سكينة المؤمنة بفكرة التعاون الإنساني، تقدر الذات الإنسانية، تحفظ المشاعر وتقدر جيرانها اللاتي منحنها الخبز والطعام وقت الحاجة على سبيل السلفة؛ فترده عندما تمتلك، وتذهب بنفسها تقديرًا لهن، ولروح التعاون التي سادت بينهن،تلك الصورة هي الصورة المثلى التي تسعى الماركسية إلى تحقيقها وتنميتها لتسود المجتمعات حتى تستقيم الحياة، وتواصل سيرها دون صراعات طبقية تضر بالإنسان، وتهزمه في أغوار نفسه العميقة، وتدفعه إلى الانحراف والصراع والعنف المبني على الطبقية الرأسمالية.

تؤمنالشخصية الماركسية (الاشتراكية) داخل مجتمع النص الروائيبالتعاون متبنية فكرة المشروعات التعاونية القائمة محل المشروعات الهيراركية التنافسية، التي تسود وتتكاثر في ظل الرأسمالية الوافدة على المجتمع القروي؛ لذلك فشخصية الفرَّان تقوم على توجيه طاقات العمل الجماعي المشترك بين المجموعات البشرية؛ لتحقيق أكبر نفع متبادل ممكن. "قال لي ممكن أحضر آخذ العيش الكَسْر كل أربعة أيام، الأيام الأخرى محجوزة، قبل ذلك كان يعطيه لواحدة تطعم به دواجنها، وعرضت عليه أن تحضر له كل يوم ثلاث بيضات مسلوقة، وقال لها إنه لا يأكله، ثم ظهرت واحدة أخرى وسألته أن يعطيها بعضه لأولادها وعندها أربعة أولاد وزوجها يعمل يومين ويمرض يومين، باليومية في الغيطان هي حكت له

ولم تكن تشكو.[٧٨] دفعت روح التعاون الإنساني عبده الفران إلى أن يمنح الفقراء الخبز الكَسْر، ويفضّلهم على السيدة التي عرضت المقابل المادي نظير حصولها على الخبز لدواجنها، لقد فطنت الذات الإنسانية المتعاونة أن الإنسان الفقير هو الأحوجعلى الخبر من غيره، فإطعام الإنسان هدف نبيل لابد أن يسود كي تعم روح السلام الإنساني "يعطيها العيش يومين متتاليين، وما يبقى عندها يكفيها يوما ثالثًا فلا تأتي، قطعه عن المرأة صاحبة البيض وامرأة أخرى جاءت للعيش عندها أولاد –أيضًا– تأخذ يومًا ويبقى عندها ما يكفي ليوم آخر.[٧٩] يسلك عبده الفران السلوك الماركسي الاشتراكي، فهو يمنح الفقراء ويساعدهم، ويحفظ كرامتهم، ويوقف التعاون مع الأثرياء؛ لأنهم أقدر على توفير احتياجاتهم، إن سلوكه يشبه "الجمعيات التعاونية التي ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، وقامت بشراء البضائع بالجملة، وبيعها بثمن زهيد إلى أعضائها من الطبقة العاملة[٨٠]"لكنَّ عبده الفران أكثر تعاونًا منهم لأنه يوزعها على كل محتاج يراه، وعمله ليس حكرًا على مجموعة معينة قريبة له أو تشترك معه في العمل والفكر.

الخاتمة:

تمثِّل هذا الدراسة قراءة ماركسية اجتماعية لرواية "جوع"، التي استطاعت أن تصور المجتمع بكل ملامحه: تغييراته، وصراعاته الطبقية القديمة والجديدة، وترسم آثار الرأسمالية، ومحاولاتها في التأسيس لوجودها عبر مجتمع النص الريفي.

تتضافر سمات المجتمع الريفي بعاداته وتقاليده، مع العادات الرأسمالية الوافدة؛لترسم الرواية صورة جديدة للحياة الاجتماعية الريفية في ظل رياح التغيُّر الاقتصادية والاجتماعية التي اجتاحت المجتمع في ظل الاتجاه نحو العولمة الرأسمالية، ومدى المعاناة التي تواجهها جميع الفئات المجتمعية، فقيرها وغنيها.

أبرزت الدراسة الخطاب الماركسي للرواية، وأكدتعلى الأثار السلبية التي أنتجها التحول للرأسمالية، وتبنت نظرية المعرفة في الكشف عن السياق التاريخي للوطن، وما يمر بهمن تحولات كبرى، نتجت عن التطور الكبير في المحيط الدولي.

كشفت الدراسة عن دور الأدب الماركسي في تطور الرواية العربية الحديثة، ومحاولة إشراك المتلقين في عملية التفاعل الإيجابي مع النص. وتغلغل الفكر الماركسي داخل النص الروائي، والسير وفق منهجيته وعلاقته بالواقع، وأبرزت صور التكافل المجتمعي والتعاون لتأكيد الرؤية الماركسية ومدى ملاءمتهاللمجتمع المصري.

أبرزت الرواية عمليات التضليل المجتمعي التي يقوم بها بعض علماء الدين بهدف تحقيق مصالحهم الضيقة على حساب الدين والإنسان معًا.

يعد السرد الروائي وخطاب الرواية في "جوع" وثيقة فنية معرفية مهمة، تقرأ الحاضر وتعيد إنتاج التاريخ في أحسن صوره، بهدف المحافظة على تقاليد المجتمع السليمة، وإحياء روح التعاون والتشارك التي كانت معروفة في المجتمعات الريفية القديمة.

الهوامش

[١]) د. أميمة عبد الرحمن محمد: السيرة المجتمعية وسرد ما بعد الواقعية السحرية، دراسة في رواية جوع لمحمد البساطي، فكر وإبداع: ص ٧١
[٢]) لويس تايسون، النظريات النقدية المعاصرة الدليل الميسر للقارئ، ترجمة د أنس عبد الرازق مكتبي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٤ هـ ٢٠١٤مص ٥٨
[٣]) المرجع السابق: ص ٥٨
[٤]) تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي: تر: جابر عصفور، فصول، مج ٥، ع ٣: ص ٢٣
[٥]) د. عماد الدين خليل: نقد للرؤية الماركسية للجمال، مجلة الأدب الإسلامي، العدد الأول، ص: ص ٩
[٦]) د. ممدوح فرج النابي: جوع البساطي وغوايات المعرفة والاكتشاف والحرمان، مجلة الرواية: قضايا وآفاق: ص ١٦١
[٧]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة ج٣: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط ٢٠١٣م: ص ١٦٧
[٨]) المرجع السابق: ص ٢٠٣
[٩]) أوجين كامنكا: الأسس الأخلاقية للماركسية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المركز القومي للترجمة ٢٠١١: ص ١٩٤
[١٠]) المرجع السابق: ص ١٩٥
[١١]) محمد البساطي الأعمال الكاملة، ج ٣ : ص ١٥٦
[١٢]) المرجع السابق: ص ١٥٦
[١٣]) السابق: ص ١٥٧
[١٤]) كارل ماركس، فريديريك انجلز: العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي: تر: حنا عبود، مر: د. فؤاد أيوب، دار دمشق للنشر: ص ٤١
[١٥]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة، ج٣ : ص ٢٩
[١٦]) المرجع السابق: ٢٢٩
[١٧]) كارل ماركس، فريديريك انجلز: العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي: ص ٤١
[١٨]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة، ج٣ : ص ٢٤٠
[١٩]) المرجع السابق: ص ٢٤٠
[٢٠]) كارل ماركس، فريديريك انجلز: العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي: ص ٤٠
[٢١]) محمد البساطي الأعمال الكاملة: ص ١٧٩
[٢٢]) المرجع السابق: ص ١٩٤
[٢٣]) السابق: ص ٢١٤:٢١٣
[٢٤]) السابق: ص ١٦٩
[٢٥]) محمد البساطي ، الأعمال الكاملة ج٣ : ص ٢٠٠
[٢٦]) المرجع السابق: ص ٢٠٠
[٢٧]) السابق: ص ٢٠١
[٢٨]) السابق: ص ٢٠٢
[٢٩]) السابق: ص ٢٠٤
[٣٠]) لويس تايسون، النظريات النقدية المعاصرة: ص ٦٠
[٣١]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة، ج٣: ص ٢١٦
[٣٢]) المرجع السابق: ص ٢١٩
[٣٣]) السابق: ص ٢١٩
[٣٤]) السابق : ص ٢١٩
[٣٥]) السابق: ص ٢٢٢
[٣٦]) أوجين كامنكا: الأسس الأخلاقية للماركسية: ص ٥
[٣٧]) محمد البساطي، الأعمال الكاملة ج٣ : ص ٢١١
[٣٨]) قيمة سمة التبادل: هي المنزلة الاجتماعية التي تحققها السلعة لمالكها.

[٣٩]) لويس تايسون، النظريات النقدية المعاصرة: ص ٦٦
[٤٠]) تيري ايجلتون: الماركسية والنقد الأدبي: ص ٩٥
[٤١]) محمد البساطي الأعمال الكاملة ج٣ : ص ١٦١
[٤٢]) المرجع السابق: ص ١٦٢ : ١٦٣
[٤٣]) لويس تايسون ، النظريات النقدية المعاصرة: ص ٧٣
[٤٤]) محمد البساطي، الأعمال الكاملة ج٣ : ص ١٦٢ : ١٦٣
[٤٥]) إبراهيم فتحي: الاشتراكية وخصوصية الأدب: ص ٢٦
[٤٦]) د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة السياسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٧م ص ١١٤
[٤٧]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة ج٣: ص ١٦٧
[٤٨]) المرجع السابق : ص ١٦٧
[٤٩]) السابق: ص ١٧٠
[٥٠]) السابق: ص ١٧٠
[٥١]) السابق: ص ١٧٣
[٥٢]) السابق: ص ١٧٣
[٥٣]) السابق: ص ١٧٣
[٥٤]) السابق: ص ١٧٤
[٥٥]) السابق: ص ١٧٤
[٥٦]) السابق: ص ١٧٤
[٥٧]) السابق: ص ١٧٤
[٥٨]) السابق: ص ١٧٥
[٥٩]) السابق: ص ١٧٤
[٦٠]) السابق: ص ١٧٦
[٦١])أندروهيود،مدخلإلىالأيديولوجياتالسياسية،ترجمةمحمدصفار: المركزالقوميللترجمة،القاهرة،الطبعةالأولى ٢٠١٢م : ص ٢٩٦
[٦٢]) المرجع السابق: ص ٢٩٦
[٦٣]) محمد البساطي الأعمال الكاملة ج٣ : ص ١٦٩
[٦٤]) المرجع السابق: ص ١٦٩
[٦٥]) السابق: ص ١٦٩
[٦٦]) السابق: ص ١٧٠
[٦٧]) أندروهيود،مدخلإلىالأيديولوجياتالسياسية: ص ١٢٩: ١٣٠
[٦٨]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة ج٣: ص ١٤٧
[٦٩]) المرجع السابق: ص ١٥٢
[٧٠]) السابق: ص ١٥٢
[٧١])أندروهيود،مدخلإلىالأيديولوجياتالسياسية: ص ١٣٠
[٧٢]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة ج ٣ : ص ١٥٢
[٧٣]) المرجع السابق: ص ١٥٣
[٧٤]) السابق: ص ١٥٣
[٧٥]) انظر ا أندروهيود،مدخلإلىالأيديولوجياتالسياسية: ص ١٣٢
[٧٦]) محمد البساطي: الأعمال الكاملة ص ٣: ١٤٦
[٧٧]) المرجع السابق: ص ١٥٥
[٧٨]) السابق: ص ٢٤٥
[٧٩]) السابق: ص ٢٧٦
[٨٠]) أندروهيود،مدخلإلىالأيديولوجياتالسياسية: ص ١٣٣

Capitalism and Social Change

A Marxian Vision of Mohamad el-Bosati's Novel entitled "Hunger"

Abstract

Mohamad el-Bosati's literature deals with the crushed, the marginalized and the poor. He describes the lives of those people who suffer from marginalization and ignoring. His novels re-build their realities in society of the fictional text. The researcher chooses his novel entitled "Hunger" which is considered one of his most important novels that deal with the lives of the marginalized and the crushed.

This is a critical study aiming at revealing the ideology, which supports the novel according to the Marxian theory of knowledge especially that the writer adopts the Marxian view as a pivotal idea in its intellectual and aesthetic structure. The study dealt with a number of topics, most important are: the historical context, consumption and the processes of changing the body into a commodity, the building of capitalist elites, and the capitalist inheritor.

The study aims at revealing the role played by the contemporary creative writer in dealing with the social, economic and social realities of the nation. He participates in criticizing these changes with the aim of reformation towards a real awakening. The creative ideological writer seems to have the duty of dealing with the negative phenomena in life, to enable the reader to react with the his social and cultural surrounding.

The researcher adopts the historical method in dealing with intellectual and cultural structure of the narrative text, and the extent of its reaction to the reality of his society.

The conclusion came to highlight the role of the creative writer who holds a certain ideology in spreading knowledge, and in sharing the reader in creating a positive attitude with the narrative text together with the ongoing social changes

Key words:

Socialism, changing into a commodity, inheritor, marginalized, prelude, class conflict